



صيف في الزوينة

قصة بقلم صبحي محمود

حماستهما التي كانت ترتفع من بين ركام من السداجة والعفوية ، كما ان امكانياتهما المادية الضئيلة اشعرتني بشيء من الوثوق بالعشرين ديناراً التي احملها ومكنتني من ان امثل دور القائد في جماعتنا الصغيرة .

كان اليوم يوم خميس وكانت السيارات المفادرة تمتلئ في لحظة بالجنود الجازين العائدين الى عائلاتهم ولذا فقد تعذر علينا ان نستقل احداها ولم نجد بدا من رشوة المسؤول عن حجز تذاكر السفر فالوقت لا يرحم ولم تبق من مدة التصريح الممنوح لنا سوى خمسة ايام . ولقد تكفل علي الرجال زميلنا الأشد حيوية وحركة بذلك بينما جلست انا قلقاً مترقباً اعد الدقائق التي اخذت تنقضي ببطء بالغ . وعندما عاد الينا علي يفرك يديه مسروراً بنجاح مهمته اعطاني فرصة للنظر الى ما حولي . كانت الشمس التي مالت عن منتصف السماء غرباً قد احتلت المكان الاوفر من باحة الانتظار ، وكان صبية صفار كثيرون بروحون ويجيئون بين الامتعة ويتعلقون باطراف اثواب امهاتهم الجالسات على المقاعد ويصرخون متباكين كلما مر بائع متجول وهن يزجرنهم باصوات لا تريد ان تخرج عن دائرة الاحتشام . واخذت اجول بصري بسين الجالسات بملابسهن السوداء المطرزة التي تمنع من بيتهن الريفية القريبة من حال البداوة فكان ان استقر بصري عليها . كانت ترضع طفلها وهي لاهية عما حولها وعيناها تنتقلان ما بين الصغير وسقف البناء . ورفعت عنها بصري محاولاً ان اعدو لمراقبة الجو من حولي ولكن عيني ما لبثتسا ان عادت الى التحديق في ثديها الصافي البياض الذي كان صغيراً انيقاً لا يتناسب مع ضخامة جسمها الممتلئ في غير ما اسراف وقوامها الفارع . وارتفعت عيناها في بضع متأمل الى عنقها الراسخ الابيض اللتف ، واعتدلت في جلستها واخذت هي الاخرى تجوس بعينها في المكان . كان لها أنف دقيق دقيق وفم ملموم تشققت شفتاه تحت وطأة السم طارئ وجبين ساطع ضيق زادت في كبرياته وسطوعه عصبته السوداء التي سويت في اناقة . كان صدرها يملو ويهبط في جهد واضح وقدرت انها ما نزلت المدينة الا طلباً للعلاج . واستقرقني النظر اليها فاخفتت من مخيلتي صور كثيرة مشوشة ولم يبق في ناظري ورأيي سوى هذا الكيان الشامخ التائق المنفصل عما عداه من ضوءاء .

عندما تكلمت كان في حديثها ثقة واعتداد يخالطهما شيء من الدلال المعتدل المتحفظ الذي ينأى بها عن شمس الحقل الى ظل الخباء . وقدرت من لهجتها ان الكهل الواقف امامها شخص اخر غير زوجها ، والتقت عيني بعينها لحظة فارتمشت ، كانت لها اهداف طويلة وعيون سوداء واسعة في استدارة يتكسر بريقتها على صفاء وجهها المشع . كنت استمتع بشعور غامض مبهم بانني دخلت دائرة خيالها على نحو ما وكنت ارسم لنفسي اوضاعاً ومواقع وانا استمتع بطراوة العيش في ظل هذه الواحة الغافية عندما جذبني علي بجماع يده ليسحبني الى داخل السيارة .

طوال الطريق الى القنيطرة لم اتكلم كانت السهول الحمراء السمينة المشققة لطول عطشها وقطعان الماشية التي تاكل اعواداً بابسة رغم قربها من الماء تمر امام ناظري وكانها شريط سينمائي ، اما ذاكرتي فقد

عندما القيت بكل ثقلي على المقعد الخشبي الطويل الصلب لم اكن اصدق انني انتهيت من عذاب استمر اربعة ايام . وعلى الرغم من انني كنت غافلاً عما حولي فقد امتدت رجلاي في حركة اوتوماتيكية الى ظهر حقيبتي الكبيرة وكانهما تحرسانها من هذا الخليط المتافر من الناس الذي لا يهدأ لحظة والذي يطفى الزعيق على كل افراده ما بين داخل وخارج . وتحسست جيداً الورقة التي اودعتها بحرص جيب سترتي الداخلية وكانها كنز عزيز يرتبط به مصيري المتارجح القلق فقد سمعت وراءها باشد مما يسعى كلب جائع تعب وراء فريسته . ولم ين انتظامي في ذلك الطابور الطويل امام غرفة الزنك الصدئة القديمة اصعب ما في مهمتي بل كان علي ان اجوب شوارع المدينة الكثيبة التي يسودها جو من القلق والتوتر والخوف دون جواز سفري الذي ارفق بالمعاملة حتى يتم صدور التصريح ، فالحمة على حدود العدو ولا بد لزارها من تصريح يصدر عن اعلى جهة مسؤولة في السلطات العسكرية . وهكذا فقد كان علي ان اكبح جماح فضولي وان احرم نفسي متعة البلطفة هنا وهناك في شوارع ومعالم واشياء وبشر مخافة ان تمتد الى كتفي من وراء يد خشنة فظة الطالبي بابرار هويتي . كان شيخ القضبان والارض العارية يعذبني باستمرار كلما نظرت الى يدي المتفخسة المتورمة فاؤثر ان ارتد الى حجرتي في الفندق الذي اخترته لتستقبلني عينا صاحب الفندق التوجستان ولانحشر في فراشي حتى صباح اليوم التالي . ولقد جاء هذا الواقع مخيباً لامالي في رؤية المدينة الكبيرة الجميلة ذات الجهد الخالد التي طالما هفوت اليها بعين خيالي واحلامي ، ولذا فقد حاولت ان اتور على ذلك الجمود القاتل عندما ارتفع صوت احد الجنود لليوم الثالث على التوالي « لا تصاريح للاردنيين واللبنانيين في هذا اليوم » ، فكان ان اقتادوني الى داخل حجرة الزنك الصدئة القديمة . كان الضابط المعجوز لطيفاً معي فالظاهر انني قد تفوهت بعبارات مؤثرة اثناء ثورتي . ولقد انفرد وجهه حتى خلت انه سيبتسم عندما قدمت له سيجارة اردنية . وعلى الرغم من ان التصريح كان اتمن هدية يمكن ان تهديء روعي وانفعالي الا انني وجدت في نفسي الادب الكافي للاستماع اليه . قال انه لايجيء مثلي هو الاخر فقد غادر لواء الاسكندرونة قبل ثلاثة وعشرين عاماً على امل ان يعود اليه فسي اسرع وقت ممكن ولكن ها ان الزمن والياس ياكلان ايامه وهو يزرع تحت ثقل النجمة الواحدة التي لم تنجح في ان تستضيف ثمانية وثلاثة . ولقد كذبت يومها على الرجل فحادثته عن طبريا وحماماتها ودفتها وبعيرتها واسماكها وادعيت لنفسي انني زرت المدينة مرات ومرات ، تلك كذبة كان يحلو لي ان ارددها على مسامع كثيرة حتى كدت انا نفسي ان اصدقها والواقع انها قصص تسربت الى مسامعي وانا صغير من امي التي اصطحبت شقيقتي المريضة الى هناك . وشددت على يد الرجل مودعا بعد ان وعدني وعداً قاطعاً بالحصول على التصريح في اليوم التالي .

ولقد بر الرجل بوعده ، وها انذا استلقي على المقعد الخشبي بعد مشوار ط ويل حملت فيه امتعتي من الفندق الى كراج القنيطرة والى جانبي اللبنانيان اللذان جمعتمني بهما تلك المحنة واللذان سرىا عنى الى حد كبير طوال الايام الثلاثة الماضية ، بلهجتهم الحبيبة المفرحة وحديتهما عن ضيعتهما « طر حرفاً » التي تريض على الحدود هسي الاخرى غير بعيدة عن رأس الناقورة . والواقع انني انقلت عليهما باسئلة كثيرة مرهقة وعويصة عن مناطق الحدود عندهم وعن ابرز ما يميز الحياة هناك محاولاً ان استشف صورة الماساة من زاوية جديدة ، وان اطبق باساني على طرف من ذلك اللسان الطويل الذي لا بد يلمع جراحنا في كل مكان . ولقد ادخلت الى قلبي بعض اللذة والاطمئنان

ظلت متعلقة بها .

في القنيطرة كانت الحجارة السوداء التي تغطي كل مكان وبيوت اللبن الصغيرة والغبار المتصاعد من يبادر البلدة تشيع في النفس جوا من الكتابة لم تنجح اشجار التين الصغيرة المتباعدة في ان تخفف شيئا من وطئه على النفس . ووفقت بنا السيارة في باحة منخفضة محاطة بالاسوار كأنها زريبة تتناثر في جوانبها خياش التين الضخمة المنفوخة ويتجمع في حفر ارضها ماء اسود أسن . وفي الجلسة الصغيرة التي جيعتنا بعدد من السواقين واهل البلدة كان همي ان القي باكب عدد ممكن من الاسئلة دون ان اتير الشبهة وان اجمع اكبر قدر ممكن من المعلومات ، فاصداء معركة النقيب ما زالت تتردد ، وكان يهمني بالفعل ان اطع على مدى تحسني الناس للماساة ومدى استعدادهم لصد العدوان ، ومرة أخرى وجدته انطلق في حديثي عن طبريا والبحيرة وساطنها الغربي واسماكها والطريق القصر الاخر الذي كان بودي ان اسلكه من بانس الى جب جنين الى الناصرة الى طبريا فالحمة لو ان الامر ظل على ما كان عليه قبل سنوات . ولقد كان اندماجي في الحديث وجو الماساة كاملا حتى انني جعلت مسالة استئجار السيارة مسالة ثانوية . كان شرطي الوحيد الذي اشترطته على السائق ان يحدثني عن كل موقع نمبره عند اقترابنا من الحدود وان يشير الى كل مكان يعرف عنه شيئا في اطراف الاخر المقابل . ولقد شعرت اني ظلمت زملائي بالاجرة الباهظة التي وافقت على دفعها ولكن حماسي لكل تلك المناظر الجديدة ورؤيتها من موقع جغرافي ونسي جديد كان اعزى من ان يعترضه عائق . كانت السيارة على وشك الانطلاق بنا حين وقفت الى جوارنا سيارة كانت قادمة لنوها من دمشق ، وفوجئت بها تنزل من السيارة بقوامها الفارع ووجهها الابيض المشع وشفتيها اللومنين على السم ووراعها الكهل وسرب من الاطفال . وتقدمت الى سيارتنا فسي وسألت السائق عن وجهة السيارة ، وعندما اخبرها باننا نقصد الحمة سارعت ترجوه ان ينقلهم الى قريتهم الزوية . وتلملم السائق فسي مفعده وادار وجهه نحونا وكأنه يستشيرنا . اما انا فقد كان رد الفعل عندي سريعا حماسيا دهشى له صاحباي فقد اندفعت بحركة غريزية الى اقصى طرف المقعد افسح مكانا للقادمين الجدد . ومرة اخرى اسندار السائق نحوي واخبرني بان الزوية لا تقع على الطريق الرئيسي مباشرة وانها تبعد عنه بضعة كيلومترات . ووجدته اقفز مباشرة الى استقلال اريحية زميلاي ونخوتهم وكان المسالة ليس لها الا حل واحد وحيد . ومرت لحظات كنا خلالها نقوم ونقعد وننحسر حتى اصبحنا جميعا داخل السيارة .

لم اصع على نفسي فرصة استضافتنا لهم على هذا النحو فاستدردت في جلستي اواجههم لابدأ معها ومع رجلها حديثا طويلا عن المنطقة وعن المناهد التي كنا نمر بها مسرعين . وقد سرنني حتى درجة الانشء ان شيئا كبيرا من حجلها الذي توهمته قد تبدد فقد انطلقت على سجيتها تحدثني بكل طلاقة ، ولم تترك لرجلها الا فرصة التامين على جميع اقوالها . ولقد جاء تصرفها على هذا النحو مطابقا للصورة التي رسمتها لنفسي عن المرأة في هذا المحيط القريب جدا من حال البداوة . ومرت لحظات فكنت خلالها عقدة لساني فانطلقت معرفا بنفسي وبلدي الرابضة على جبل من جبال الثلث قريبا من خط الهدنة كاشفا ادق خفايا واسرار الحياة عندنا . كلام ما كنت اتصور ان اقدم على ذكره واليوج به . اما هي فلم تتوان عن مبادلتي حماسا بحماس ، فكشفت النقاب عن اشياء كثيرة من جوانب حياتهم كان اخرها ان اهل قريتها دعوا وزير الاصلاح الزراعي الى المنطقة وانهم اولوا وليمة كانت اقرب الى مهرجان وانها اشرفت بنفسها على اعداد الطعام وشاركت في انجاح الاحتفال ، ولقد شعرت كم كانت فخورة بذلك . وفي هذه الاثناء كانت قد تقلبت على بقايا حجلها مما اعطاني فرصة اكبر للتحديق والتأمل في ذلك البناء المتسق النشوان .

عندما توقفت السيارة في ساحة القرية كانت الشمس ترسل بخيوطها الازرقية الواهنة فوق السهول المغطاة بالحجارة السوداء . ولم اصدق بادى الامر اننا سنفترق بمثل تلك السهولة وانني سأترك لاطلع على جوانب جديدة من الماساة وحدي ، لهفة عاصفة كانت تجتاحني

وتشعرتني بالحاجة لان استيقها لنستعرض معا كل المناظر . ولنعلق معا على كل المشاهد والاحداث . وعندما نطقت بالعبارة التقليدية تفضلوا خلت ان الدعوة لا بد جادة تتطلب الموافقة الفورية حتى لكانني تحولت من مريض الى سائح تستهويه القرابة والمغامرة فقد نسيت ولو الى حين يدي المتورمة ومياه المقل التي تشوي البدن شيئا وان محدثتي امرأة غريبة عرفتها قبل ساعات . لكن الحقيقة كانت اقوى من كل الاختلاجات في اعماقي فقد استدارت السيارة مسرعة لا تلوي على شيء ووجدتني اقاوم رغبة جارفة في ان ارفع يدي محيا مودعا .

طوال الطريق ظلت صامتا بينما السيارة تندفع مسرعة وكسانها تسابق الشمس الغاربة تخلصا من غيش المساء تتناهي الي اصوات رفاقي من بعيد بعيد فيما كنت اعبر بخيالي ساحة واسعة لاشق طريقي بصعوبة وسط قطيع كثيف من الحملان الجميلة الشبعانة المرحاة لاصعد درجا ضيفا الى علية انتصبت فوق لوابين واسعة الابواب مفتوحة للريح والشمس ، ولا تصدر جلسة عربية مريحة كل ما فيها ينطق بالدفاء والحنان وغير بعيد مني كانون النار وجوزة القهوة، ينبعث من اوصالي دفء طبيعي لا تقدر على تحقيقه كل وسائل التدفئة الحديثة المصطنعة . كانت الطريق بين بلعا في الثلث والزوية في الجولان قد اختصرت لينتصب على حوافها جسر عتيق راسخ يختصر برسوخه المسافات ويبدد كل حس بالزمان . واهلت هي وقد تخففت من الكثير من ملابسها لتحدثني حديثا كله حب وحنان . وعند انتهاء السهرة صحبتها في جولة الى الحقول وايدينا متشابكة واشعة القمر نفرش لنا الدرب بالف لون ولون . كانت الارض غير الارض العطشانة المسطحة والاشجار قوية سامقة والحقول خضراء طافحة بالنضارة والنمو وخرير الماء ينبعث من كل جانب . كنا نقف عند كل منعطف وراوية نمتص كل وماء وحركة ونستشرف افاقا بعيدة شفاقة وكان الطبيعة قد اقامت لنا عرسا بهيجا بعيدا عن عين الرقيب . وبدانا ننزل منحدرنا سحرنا صفت احجاره في عناية بالغة وفجأة مالت علي تنقي السقوط واقترينا حتى لكاننا نتعانق وهنا افقت على لكزة قوية من يد زميلي علي الرحال .

والنفت ، كانت السيارة تنزل منحدرنا سحيقا ونظرت الى حيث كانوا ينظرون . كانت الاصواء تتلالا على الضفة الاخرى من الهوة السحيقة بعيدة عنا الى الوراء . وفوجئت بالسائق يخطني على ان اراقب المشهد الذي فاتني معظمه والذي طالما اتقت لرؤيته والححت في السؤال عنه . كانت اطراف البحيرة الشرقية على بعد مئات الامتار فقط ولم يكن الظلام الهاجم يسمح لي الا بمشاهدة طرف ضئيل من المياه الغافية المتلاثلة والتصفت بناقذة السيارة محذفا وصحت بالسائق ان يتمهل ، بل لقد خالجنني رغبة جارفة في ان اغادر السيارة لاغمر نفسي بالماء الذي طالما تحدثت عن سحره وصفائه وكنوزه المغورة دون ان اراه ، ولكن السيارة كانت تتحدر وتتحد دون ان يلتفت السائق الى اسلتي الكثيرة المتلاحقة ولهفتي التي كانت تصل حد الهوس والحقم . لكنائه كان يعاقبني على انشغالي وسهومي طوال الوقت السابق . وحين اعدت الكرة مرة اخرى ملحفا في الرجاء افهمني بادب من نقد صبره ان علينا ان نصل مخفر الحمة قبل الساعة والا نمنعنا من الدخول وان بامكاني ان اعوض ما فاتني في طريق العودة .

الجنون الاحمق ! ألم يكن يدي انني انتظرت مراقبة المشهد اياما واياما وان التلمي منه تبرير لكذبة كبرى ظلمت اعيشها سنوات وسنوات ! وانني بمشاهدتي كان يمكنني ان احل اشكالا ضخما قائما في حياتي يفصل عالم الوهم عن عالم الواقع .

وبلعت ريفي حنقا ونحن ننحدر وننحدر ومن بعيد كانت الاصواء على الضفة القريبة للبحيرة تخفت وتخفت وخلت انني ارى صورتها تتماوج بين الاصواء المتعددة ملوحة محذرة هذه المرة لكانها . كانت تدرك انني من جديد اقتراب من مكان الخطر وانني من جديد اعيش جو الماساة . رويدا رويدا بدأت الهوة الفاغرة فاها تبناعنا وحين وقفت بنا السيارة كان الظلام يلف بسواده كل شيء من حولنا وادركت اننسي بحاجة الى كل ما اخترته من بصيرة وجهه كي ارى معالم الطريق من جديد .

عينا

صبحي شحروري